

السياسة التعليمية الفرنسية في منطقة القبائل ١٨٧١-١٩١٤

عبد القادر علوش
مرشح للماستير

يتوخى هذا البحث دراسة الدور الاستعماري للمدرسة الفرنسية في منطقة القبائل (١) ، التي كانت حجر الزاوية في السياسة التعليمية الفرنسية . لان اهتمام الجمهوريين (الجمهورية الفرنسية الثالثة) بمنطقة القبائل ، بل وبمناطق جد محددة من هذه الاخيرة ، لم يكن وليد المصادفة بقدر ما هو محاولة لعزل هذه المنطقة عن بقية المناطق الجزائرية ، قصد تثبيت فكرة الاقليمية وتشتيت شمل المجتمع الجزائري . وبدا الاهتمام الفرنسي بهذه المنطقة مع بداية الاحتلال في ١٨٣٠ لينتهي بظهور ما اسماه الفرنسيون بالاسطورة القبايلية .

١ - الاسطورة القبايلية :

بدا الاهتمام الاوروبي بهذه المنطقة منذ الاحتلال الفرنسي للجزائر في ١٨٣٠ ، وخاصة بعد تنظيم الحملة العسكرية اليها في ١٨٥٤ . وتأخر احتكاك الفرنسيين بالمنطقة ودخولهم اليها نظرا لانشغال الاستعمار الفرنسي في اخضاع مناطق اخرى من البلاد وخاصة صراعه مع الامير عبد القادر (٢) . وكان الاهتمام الفرنسي منصبا على دراسة هذه المنطقة من جميع جوانبها : جنسها ، عاداتها ، تقاليدها وتكوينها الاجتماعي (٣) . . . وكان لهذه الفكرة الاستعمارية انصار في الجزائر منذ الاحتلال . غير ان هذه الحركة التي تأسست ما بين ١٨٤٠ و ١٨٥٧ تم تدعيمها وبروزها كسياسة قبايلية ، بل كايدولوجية استعمارية للاحتلال الفرنسي ما بين ١٨٦٠ و ١٨٧٠ لتأخذ شكلا خطيرا منذ ١٨٧١ ، عندما تبناها الجمهوريون . وقد شهدت فترات ١٨٦٠ و ١٨٧٠ ميلاد ما اسماه الاوروبيون « بالاسطورة القبايلية » Mirage ou Mythe kabyle . فقد وسع الاوروبيون من سياستهم القبايلية في هذه الفترة بالذات ، وهي الفترة التي

شهدت اهتمام الامبراطورية الثانية ، بسكان المستعمرة من الجزائريين ، وظهور ما أسماه الأوروبيون بسياسة المملكة العربية . هذه السياسة التي عارضها الأوروبيون بشدة كونها تحاول تحسين ظروف الجزائريين ، كاعطائهم حق التعليم او توسيع مجال هذا التعليم ونحوها . . . وكان أشد المعارضين لهذه السياسة المهتمة «بالاهالي» indigénophile الدكتور فارنييه (٤) Warnier (٤) ، الذي حاول ان يثير القبائل ضد هذه السياسة الامبراطورية التي ليست في صالحهم وانما تخدم العرب فقط على حد زعمه (٥) . وبذلك حاول هؤلاء خلق التفرقة والنفور بين العرب والقبائل للقضاء على مشروع المملكة العربية (٦) . وفي هذا المضمار بدأ الاستعماريون في الكتابة عن هذه المنطقة دون غيرها من مناطق القطر الجزائري لابرار الخاصة القبائلية Particularité kabyle . محاولين بذلك الوصول الى غايتهم في ان هذه العناصر القبائلية تنحدر من اصل اوروبي وليس عربيا (٧) .

وحاول بعض الأوروبيين من جانب اخر استغلال بعض نقاط الاختلاف والتباين الموجودة بين الاسر العربية والاسر القبائلية من العادات والتقاليد والانظمة الداخلية للتركيز عليها والانطلاق منها لبناء نظرياتهم العنصرية والاستعمارية (٨) . وتبنى اخرون في الاربعينات من القرن الماضي سياسة خطيرة تهدف استغلال الاختلاف (بين العرب والقبائل) وتضخيمه لفصل الاثنين عن بعضهم البعض ، ودمج القبائل بالقضاء على العنصر العربي بعد اضعافه وتشتيته (٩) .

ولم تقف السياسة التعليمية الفرنسية عند هذا الحد ، بل اصبحت سياسة رسمية للجمهوريين . واذا كان مفهوم الادماج والسياسة العامة (الفرنسية) الموجهة للمستعمرة قد اختلف في تطبيقهما في الجزائر كل طرف على حدة ، اي اختلاف جمهوري باريسي وأوربي المستعمرة من الكولون ، فان السياسة التعليمية في منطقة القبائل لاقت تقريبا نفس الاهتمام والتقارب عند كلا الطرفين ، وذلك عندما أصبح الامر يتعلق بالقضاء على العنصر العربي والانفراد بالعنصر القبائلي في سياستهم التعليمية . وعندما تولى المدنيون الحكم في الجزائر بعد سقوط الامبراطورية في ١٨٧٠ ، اشتد الاهتمام بتطبيق هذه السياسة ، بل ان اول مشروع للجمهوريين في اطار سياستهم التعليمية كان موجها لمنطقة القبائل دون غيرها . وقد حاول هؤلاء من خلال تركيزهم على هذه المنطقة ، ابراز الهوية القبائلية واعتبارها الاساس في الجزائر مع انكار للهوية العربية باعتبارها الدخيلة والغازية . « ان القبائليين هم السكان الحقيقيون للجزائر ، انهم اقرب الينا ، انهم الاكثرية وهم مستقبل هذا البلد » (١٠) . ومن هنا فليس من الغريب او المستبعد ان توجه السياسة التعليمية الفرنسية الى منطقة القبائل وحدها ، بل والى مناطق جد محددة من هذه المنطقة نفسها (١١) .

٢ - الخطوط العامة للسياسة التعليمية في منطقة القبائل :

ظهرت فكرة تركيز الجهود التعليمية في المناطق المكتظة بالسكان وحول المدن الكبرى ، اي في المناطق الأكثر ملائمة لنجاح عملية الفزو الثقافي والهيمنة الاستعمارية . وقد بدأ الاباء البيض نشاطهم كمربين للجزائريين منذ ١٨٧٢ (١٢) ، وفي منطقة القبائل على الخصوص ، معتقدين بإمكانية ارجاع هؤلاء السكان الى حظيرة الدين المسيحي . واشتدت هذه الحركة لتأخذ الطابع الرسمي منذ ١٨٧٣/١/١٢ عندما اقترح حاكم منطقة فورناسيونال Fort-National على الحاكم العام المدني دوغيدون de Gueydon برنامجا يقضي بفرنسة القبائل « شعب عربناه اكثر مما نفرنسه » (١٣) ، والغاء المدارس العربية الفرنسية نهائيا و « ابطال مفعول الزوايا بجميع الوسائل وجعلها تحت السلطة الفرنسية » ، مقابل خلق مدارس بلدية حكومية فرنسية من منطقة القبائل لاستبعاد تعلم اللغة العربية لهؤلاء السكان . وفي الوقت نفسه سمع الحاكم العام دوغيدون للاسقف لافيجيرى (١٤) بفتح المدارس الخاصة ، بهذه المنطقة مع اعطائه جميع التسهيلات اللازمة ، بالرغم من علمانية الجمهوريين ومدرستهم الاستعمارية . ومنذ سنة ١٨٧٣ الى ١٨٧٥ ، استطاع هذا الاخير (لافيجيرى) تاسيس خمسة مراكز لتعليم اطفال القبائل تعليما نصرانيا ، هذه الفترة التي عرفت اشتداد حركة الارساليات التبشيرية لتنفيذ هذه السياسة في الواقع . ومن جهة اخرى فامت الاخوات البيض بفزو المنطقة بنفس الاسلوب بدءا بتربية المرأة القبايلية التربية المسيحية (١٥) .

وفي سنة ١٨٨١ كلف احد المتحمسين للسياسة التعليمية في منطقة القبائل ، السيد ماسكارى Masqueray (١٦) بمهمة في منطقة القبائل للاطلاع على السكان ومعرفة موقفهم من التعليم الفرنسي . وعندما اجرى الحوار مع السكان استخلص الموقف على الشكل التالي : ٥١ صوتا مع التعليم الفرنسي و ١٦ صوتا ضده . ولكن لم يقبل هؤلاء بالتعليم الفرنسي الا شريطة تدريس احد الجزائريين اللغة العربية لهم ، لان هاجس الخوف لدى هؤلاء السكان كغيرهم من سكان الجزائر ، كان يدور حول مستقبل اللغة العربية ومصيرها في التعليم الفرنسي .

ولنسمع ماذا كان رد فعلهم امام اسئلة ماسكارى : « علموا ابنائنا اللغة العربية ، فكان جواب السائل : نعلمها لهم كلغة اجنبية . » (١٧) . ومن هذا التصريح تظهر استعمارية السياسة التعليمية الفرنسية من جهة وتمسك الجزائريين بلغتهم العربية من جهة ثانية .

وبعد هذه الزيارة العملية والاطلاعية (لجس التبض) التي قام بها ماسكارى في سنة ١٨٨١ الى منطقة القبائل ، رأى جول فيرى (١٨) ، وعلى ضوء هذه المعطيات

والنتائج المستخلصة من تقرير صاحب الزيارة ، ان « منطقة القبائل هي اكثر مناطق الجزائر تقبلا لفكرة الادماج ، نظرا لعادات وتقاليد سكانها المختلفة عن العرب » (١٩) .

ولا يمكن فهم فكرة الادماج ، التي كانت يطالب بها البعض للقبائل فقط ، بينما طالب بها البعض الاخر للجزائريين كلهم ، الا في اطار الرؤية الاستعمارية . فجل فيري اراد خلق ١٥ مدرسة مرتبطة مباشرة بالوزارة ، وتساهم هذه الاخيرة بثلاثة ارباع التكلفة اذا ما قام المجلس العام للحكومة العامة في الجزائر باخذ الباقي على عاتقه (٢٠) . وامام رفض المجلس لهذا المشروع قرر الوزير ان تتكفل الحكومة وحدها بجميع المصاريف . وللقيام بالتدريس في هذه المدارس كان لزاما اختيار اطار مدرسي ذي خبرة وقدرة عالية في الدفاع عن القضية الفرنسية واكتساب التلاميذ الجزائريين اليها . وهذه الخبرة تكمن اساسا في تعليمهم خلال مدة ستة اشهر اللهجة البربرية (القبائلية) لتسمح لهم بالتوغل داخل المجتمع القبائلي .

اما عن الوسائل التي اتبعتها الادارة الفرنسية لتحقيق سياستها الاستعمارية الجديدة ، فكانت في فتح المجال للوفود الدينية لنشر رسالتها بتأسيسها للمدارس في هذه المنطقة . ومنذ تاريخ ١٨٧٣ بدأت تحل بالمنطقة وفود الاخوان المسيحيين والاباء البيض فاتحة مدارسها الخاصة لنشر المسيحية . واستمر الوضع على هذه الحالة حتى مجيء حكومة شانزي Chanzi التي لم تعارض هذه المدارس ، بل اولتها الدعم والعناية . ولتعليم القبائل كان يشترط القضاء على الوسيط العربي ، او بمعنى اخر تعليم هؤلاء اللهجة القبائلية او اللغة الفرنسية . ويوضح المقدم ، اداري دائرة تيزي اوزو في رسالة وجهها الى الحاكم العام في ١٨٧٣ ، ذلك ، بقوله : « . . لتعليم هذا الشعب القبائلي : يجب الفاء الوسيط العربي . . لانه كان حتى الان ضارا اكثر منه مفيدا ، وبكلمة واحدة يجب ان نكلمه بلفته ، او نعلمه لفتنا . . واقصد اللغة الفرنسية لانني اعتبرها سهلة التطبيق . اما فيما يخص الزوايا فيجب اسقاطها نهائيا وبجميع الوسائل من منطقة القبائل لاستبدالها بمدارس بلدية فرنسية » (٢١) .

ووفقا لهذه الرؤية الاستعمارية تم وضع برنامج عمل يهدف الى انشاء ثمانى مدارس ابتدائية عمومية تكون تحت اشراف الحكومة (لم تؤسس الا اربع مدارس) اشتهرت بالمدارس الوزارية ecoles ministérielles وذلك لتفادي معارضة البلديات لها . ويقوم بالاشراف على هذه المدارس مدرسون اوروبيون يساعدهم مدرسون جزائريون لتعليم القرآن وذلك لضمان استمراريتها وكسب ثقة التلاميذ واوليائهم اليها .

واقترح اوربان Urbain (٢٢) - بعد ان فشلت وسائل الترهيب - اللجوء الى وسائل الترغيب كتقديم الملابس والهدايا والمساعدات المالية احيانا لجلب التلاميذ وذويهم الى المدرسة الفرنسية . واقترح كذلك اقامة المدارس المهنية لاستقبال

المتخرجين حتى يطمئنوا على مستقبلهم وطالب آخرون بان يكون لكل مدرسة فرنسية مدرس جزائري يقوم بتعليم القرآن . ومن وسائل تطبيق هذه السياسة كذلك كان مراعاة طبيعة هذه المدرسة ، فجاءت برامجها الدراسية فرنسية الشكل والمضمون . فهي لا تختلف عن البرامج التعليمية المستعملة في المدارس الابتدائية الفرنسية بفرنسا . ويشترط في المدرس ان يكون اوروبيا وليس جزائريا (٢٣) . بحجة ان المدرس الوطني ما يفتأ ان يتحول الى تدريس اللغة العربية عند انعدام المراقبة . ويرفض لوبورجوا H. le Bourgeois توظيف المدرسين الجزائريين في المدارس العربية - الفرنسية بمنطقة القبائل لقتل اللغة العربية وتدميرها ، ونشر اللغة الفرنسية بدلها . وفي برامج المدرسة الابتدائية العليا (٢٤) ، التي انشئت في ١٨٨٥ بمنطقة القبائل تحتل اللغة العربية نفس المكانة التي تحتلها اللغة الانجليزية كلغة اجنبية (٢٥) .

غير ان المؤيدين للسياسة التعليمية في منطقة القبائل كانوا يرون ان القبائل وحدهم دون العرب كافون لان يكونوا في خدمة المستعمرة . وتقسيم مبروكي (٢٦) Mabrouki انصار هذا الرأي الى :

- ١ - العسكريون الراغبون في السيطرة والذين يحلمون بدمج الاجناس .
- ٢ - الذين يريدون الوصول الى الادمج عن طريق التعليم .
- ٣ - الذين يريدون خلق الملكية الخاصة لفرض النظام والاستقرار لشعب يصعب فهمه .
- ٤ - الذين يرغبون في اقامة قرى مختلطة اوروبية - قبايلية .

ويعتقد بعض الاوروبيين الاستعماريين امثال دولت دومسليين D. D'Aumesline على انه يجب محاربة الافكار وغزوها، بل لقد كان ضد اية فكرة او سياسة تنشد في برامجها احترام المجتمع الجزائري . ويقترح لهذا الغرض تمسيح الجزائريين وخاصة سكان القبائل باعتبارهم احسن عنصر والوحيد القابل للتمسيح والفرنسة في احسن الظروف وباسرع وقت ممكن (٢٧) .

غير ان هذه السياسة التعليمية لم تكن لتسلم من المعارضة الاوروبية ، كونها تهدف الى تعليم الجزائريين ورفع مستواهم الثقافي والمادي والاجتماعي . فعند زيارة لوبورجوا للمدرسة بمدينة تيزي اوزو Tizi - Ouzou شاهد ان كل تلامذتها كانوا من ابناء الكولون (المعمرين) والموظفين الفرنسيين والجزائريين الموالين لفرنسا ، بل ان هذا الرفض جاء من شخصية حكومية ، هو رئيس بلدية تيزي اوزو الذي كان يحارب وبشدة فكرة تعليم الجزائريين سواء في منطقة القبائل او في غيرها من المناطق بدعوى « انهم جنس منحط ومدعو للزوال » (٢٨) . واعتبرت المعارضة الاوروبية ان

المدارس الوزارية تشكل « قصورا مدرسية » palais scolaires كونها لا تستطيع تغيير حياة الجزائريين وعاداتهم وبالتالي فرنستهم (٢٩) . فالكولون الاوربيون لا يمكن ان يقبلوا بهذا الوضع لانهم في الاساس من انصار الابداء للشعوب ، وهم الذين طالبوا باستعمار استيطاني والقضاء على العنصر الجزائري . لكن مثل هذه النظرية لا يمكن ان تتحقق نظرا لاختلاف ميزان القوى ، فعدد السكان الاوروبيين قليل جدا اذا ما قورن بعدد الجزائريين . ومن هذا المنطلق كان التفكير والبحث عن اقلية اقل احراجا وازعاجا للاستعمار واكثر فائدة له ، هي الاقلية القبايلية (٣٠) .

والشكل الاكثر تعقيدا في هذه السياسة هي انها لم تستطع توفير الوظائف لهؤلاء (خريجيها) رغم قلة عددهم . ومن هنا بات واضحا ان تقع المواجهة بين هؤلاء المثقفين المنافسين للاوربيين على المناصب في المدن وفي اسواق العمل وبين الاوروبيين انفسهم . وامام موقف الاوروبيين المتصلب والرافض لكل مس وانتقاص لسيادتهم ، كان لا بد من ايجاد حل مناسب لهذه الازمة ، واصبحت الهجرة بديلا عن المدرسة (٣١) . فاشتدت بذلك الهجرة نحو فرنسا خاصة من منطقة القبائل (المنطقة جبلية في اغلبها) الاقل حظوظا لايجاد فرص العمل . وقد تكون لهذه السياسة حدود ابعد ، فهي بهذه الطريقة تستطيع غزو منطقة القبائل بايد قبايلية . وان عودة المهاجرين الى الجزائر له اكثر من معنى ، فهم ان لم يتجنسوا بالجنسية الفرنسية ، فهذا لا يعني انهم حصلوا على جميع حقوق المواطنة الفرنسية وواجباتها (٣٢) .

امام هذا العرض للسياسة التعليمية في منطقة القبائل ، ماذا كانت اهدافها ؟ . كان هدف الجمهوريين وسياستهم التعليمية في منطقة القبائل يعني ادماج القبائل وبابة سرعة ممكنة في المجتمع الفرنسي وفصلهم عن باقي الجزائريين . فقد كتب احدهم في ١٨٨١ يقول : « ان الهدف الاسمي الذي يجب ان تبذل من اجله كل الجهود في هذا البلد (منطقة القبائل) هو بدون شك جعله بلدا فرنسيا » (٣٣) .

وقد راينا كيف كان دعاة الاسطورة القبايلية ينظرون الى هذه المنطقة ، والى سكانها . ومن هذه الرؤية كان التعليم الموجه لمنطقة القبائل يركز خاصة على التشكيك بعروبة الجزائريين واسلامهم ، وترسيخ الشعور والافكار الفرنسية لتسهيل عملية ادماجهم .

وليس من المصادفة ان تكون المدارس الاولى كلها مركزة في وسط جرجرة ومنطقة القبائل ، انما لان ثورة ١٨٧١ (٣٤) قد انطلقت من هذه المنطقة بالذات . وترى ف. كوانو ان اختيار هذه المنطقة بالذات يخضع لعاملين اساسيين هما :

١ - نوع من التعدي .

٢ - أهمية المنطقة اقتصاديا (٢٥) .

وإذا كانت فكرة الإدماج قد استعملت كوسيلة للغزو من جهة ووسيلة للاستيلاء على الأرض وفرنستها أولا ثم فرنسة السكان ثانيا في جميع حركاتهم وعاداتهم وأفكارهم (٢٦) خاصة من جهة ثانية ، فإن السياسة التعليمية الفرنسية من منطقة القبائل كان لها نفس الأسلوب والطريقة في تفكيك المجتمع الجزائري ثم هدمه عملا بالشعار الاستعماري « فرق تسد » (٢٧) .

وكل هذه الاتجاهات رغم اختلاف أساليبها وطرق عملها ، إلا أنها تتفق في غاية واحدة، هي الإدماج السريع والكلي للقبائل أولا ثم للعرب ، وأحيانا ادماج العنصر الثاني بالاول . ولتحقيق هذه الأهداف الاستعمارية تصبح الاسطورة القبايلية هي الإدماج نفسه كمرحلة أولى لدمج جميع السكان ، او بمعنى آخر الفرنسية الكاملة للجميع .

٣ - نتائج السياسة التعليمية في منطقة القبائل :

ان كل الأهداف المسطرة في السياسة الاستعمارية كالفرنسة بالملكية الخاصة والتعليم والتسيخ والقضاء الفرنسي (٢٨) لم تبق حبرا على ورق ، ولكن رافقتها اجراءات ملموسة تهدف الى خلق فكرة الاقليمية وتدعيمها Particularisme التحضير للمهمة الاستعمارية المنشودة وهي الإدماج الكامل . وبهذه الطريقة حاول الفرنسيون غزو المنطقة المذكورة فكريا ، واشتد نشاطهم حول هذه المنطقة دون غيرها حتى ان ٨٩٪ من المدرسين الجزائريين من اصل منطقة القبائل و ٧١٪ من مجموع ٥٢٦ من اصل ولايتين اثنتين بمنطقة القبائل هما : تيزي اوزو (٤.٥) وبجاية (٦٦) .

وما بين سنة ١٨٨٢ الى ١٩٠٦ ارسلت مدرسة تاوريت ميمون وحدها الى سب المعلمين ببوزريعة ٥٦ تلميذا - مدرسا ، و٤ طلاب الى المدرسة الاسلامية بالجزائر العاصمة . وفي تقرير لمديرية التربية في ١٩٠٩/١٢/٣١ ، ذكر ان مجموع التلاميذ في منطقة القبائل الذين استفادوا من التعليم الفرنسي ، كان حوالي ١٣٥٠١ من مجموع ٤٤٠ الف نسمة ، واصل منهم ٢٥٢ تعليمه ما بعد الشهادة الابتدائية و ٨٤٠٢ بقوا بمناطقهم (يشغلون مع ابائهم) و ١٧٢٧ منهم اصبح حرفيا ، و ١٦٧ توجه الى الاعمال التجارية . أي ان نسبة ٤٪ فقط هي التي التحقت بالوظائف الادارية او مارست اعمالا حرة مقابل نسبة ٩٠٪ بقوا على حالتهم الاجتماعية السابقة (وهذا ما يفند اسطورة التنصل déclassement التي ابدعها معارضو التعليم الجزائري) ، و ٦٪ منهم هاجر الى المدن للعمل عند الاوروبيين او كأجراء يوميين (٢٩) .

غير أن هذه السياسة لاقت نفس مصير السياسات السابقة ، أي أنها لم تستطع الاستمرار في تأسيس مدارسها نظرا للمعارضة الأوروبية القوية من جهة ، ومعارضة الجزائريين أنفسهم لها . إلا أن مبررات كل طرف تختلف عن الآخر ، فالطرف الأول أي الأوروبي ينظر إليها انطلاقا من مصالحه الخاصة التي تتعارض مع الجزائريين وترقيتهم سواء في منطقة القبائل أو في غيرها ، لأن في ذلك منافسة له في نفوذه وقوته . أما الطرف الثاني ، أي الوطني (الجزائري) فانطلاقا من تفهمه وإدراكه لاستعمارية هذه السياسة التي تحاول تفرقة وتشتيت شمله ، بل هي جزء من رفضه للاحتلال ككل .

وإذا كانت قبيلة بني بني (بمنطقة القبائل) مثلا قد تجاوبت مع المدارس التي أسستها الإدارة الفرنسية (٤٠) ، فذلك راجع إلى أن التعليم العربي الإسلامي بهذه المدارس قد أسند إلى مدرسين جزائريين لتعليم العلوم الدينية . إلى جانب ذلك ساعدت بعض العوامل على تحقيق القبول ، منها تركيز السكان بمنطقة واحدة ، إضافة إلى العامل الاقتصادي الذي يتمثل في أن سكان هذه المنطقة لم يتعرضوا لاستعمار الأرض ومصادرتها بالشكل الذي عرفته المناطق الأخرى من الجزائر . وإذا نظرنا إلى تركيبة المجتمع بمنطقة القبائل تمكنا من تفسير نجاح المدارس بها نوعا ما . فالسكان الأوروبيون وهو العنصر الرفض لأي تعليم يستفيد منه الجزائري (يمثلون نسبة ١٨٪ من كامل دائرة تيزي أوزو حتى سنة ١٩٢٦ ، في حين نجد أن هذه النسبة أعلى بكثير من مدينة وهران ، أي حوالي ٥٥٪ (٤١) . ومن هنا يظهر أن نجاح المدرسة الفرنسية يخضع إلى عامل السكان والمنطقة ، إضافة إلى العوامل التاريخية والاقتصادية والاجتماعية التي ذكرناها . وإذا كانت بعض المدارس الفرنسية قد لاقت نجاحا في بعض المناطق . فذلك مرجعه إلى انعدام المدارس القرآنية بها . وتقول تقارير صاباتيه Sabatier (٤٢) في ١٨٨٢ أن النجاح الذي حصلت عليه مدرسة كل من تمازيرت (وهي الأقدم) ومدرسة صهاريج ، يرجع إلى أن هذه البلدية لا تملك مدرسة عربية إسلامية .

وأخيرا يمكن إجمال فشل هذه السياسة في النقاط التالية :

- ١ - رفض الجزائريين لها إيمانا بسوء نيتها ، بل أكثر من ذلك فهي جزء من رفض الاحتلال أجمالا .
- ٢ - رفض الأوروبيين للتعليم الجزائري عموما ، لأنه عامل من عوامل إشراكهم في النفوذ والسيطرة .
- ٣ - لأنها كانت موجهة من باريس ، وبالتالي فاصحابها يجهلون واقع المجتمع الجزائري سواء في منطقة القبائل أو في غيرها ، ومدى قبوله أو رفضه لها .

- (١) استعملت كلمة قبائل للتعبير عن البربر ، وتقابلها في الفرنسية Kabyle خلافا لقبائل (جمع قبيلة) .
- (٢) كانت قد سبقتها حملات عسكرية فاشلة في عامي ١٨٤٦ و ١٨٤٧ .
- (٣) في ١٨٤٥ رأى بيليسي R. de Pellissier امكانية تحقيق الاندماج بين الاوروبيين وبين القبائل .
- (٤) تولى منصب امين عام الحكومة العامة في الجزائر ، وكان من الدعاة المتحمسين للاندماج .
- (٥) وكان هؤلاء يريدون تكوين « مملكة قبايلية » مقابل « المملكة العربية » .
- ٧٧ Ageron, Ch. r., «La France a-t-elle eu une politique kabyle»..? in *Revue Historique*, Avril- Juin 1960 , P. 315 .
- (٧) كتب الجنرال دوماس في هذا الشأن يقول : « يوجد جنسان مختلفان ، الجنس العربي والجنس القبائلي » . اما دوتوكفيل فقد كتب يقول في السياق نفسه في سنة ١٨٢٧ : « اذا كانت بلاد القبائل مسدودة امامنا ، فان روح القبائليين مفتوحة امامنا » .
- Ageron, *Les Algériens Musulmans et la France*, t.I, p. 269.
- (٨) كتب الجنرال دوفيقي في سنة ١٨٤١ ، ميرزا الاعتماد على العنصر القبائلي دون غيره ، يقول : « ان استقرار القبائل وجههم للعمل يجب ان يكونا قوام سياستنا في افريقيا » .
- Ageron; *La France a-t-elle ..* ibid, P. 314.
- (٩) كتب النقيب كاريت ليؤكد على ان : « منطقة القبائل بقيت لحد الان خارجة عن الاتصال المباشر معنا . واذا كانت سابقا في حروب مع جميع « المحاولات الاستعمارية السابقة ، الا انه يجب ان تصبح في السنين القادمة المساعد القوي لمؤسساتنا والمشارك المفيد لمشاريعنا » .
- Ageron, op. cit., p.314
- (١٠) Ageron, *Les Algeriens ..* ibid p.270 .
- (١١) لم يطبق التعليم الالزامي في الجزائر الا على ثمانية (٨) بلديات موجودة كلها في منطقة القبائل Kabyle . ثم اصبحت اربع مدارس باقتراح من مدير التربية في ١٨٨٢ هي : مدرسة نيزي راشد ، تاوريت ميمون ، ميرة ، جماعة صهاريج .
- (١٢) Mesnard, I., *L'Oeuvre Française s'adapte aux messes musulmanes en Algérie*, in *Etudes*, Juin 1948, P.359.
- (١٣) Ageron, op. cit., p. 332.
- (١٤) اصبح اسقفا للجزائر في ١٨٦٧ وانتشرت المسيحية بخطى واسعة في عهده . فهو الذي كون طبقة جديدة من المبشرين (من الجزائريين الكاثوليك) عرفت بالاباء البيض وانتشرت في منطقة القبائل .
- (١٥) Mesnard, op. cit., p.360.
- (١٦) فهو الذي قال في سنة ١٨٧٦ : « اذا اردنا في ظرف جيلين ، ستتحول منطقة القبائل الى فرنسية ، ويكفي لذلك اقامة مدرس لكل قبيلة » .
- Ageron, Ch. R., *Histoire de L'Algérie Contemporaine* , t. I, p. 156.

Rimbaud, A., **L'Enseignement primaire des indigènes musulmans d'Algerie**, p.43. (١٧)

(١٨) كان وقتها وزيرا للتربية والتعليم ثم اصبح رئيسا للحكومة الفرنسية . وكان من انصار الجزائر الفرنسية ، اي الجزائر الملحقه والمدمجة في فرنسا (الميتروبول) .

L'Amicale des anciens instituteurs et institutrices et le cercle Algerianiste .. 1830-1962 .Des enseignants d'Algerie se souviennent de ce qu'y fut l'enseignement primaire, p.46 ed. Privat, 1981. (١٩)

والراي نفسه ابداه الحاكم العام تيرمان Tirman (١٨٨١-١٨٨٥) عندما امر حاكم منطقة فورنا سيونال بتطبيق الزامية التعليم على منطقته .

(٢٠) كانت البلديات الجزائرية اشد المعارضين لتعليم الجزائريين، وقدمت لذلك تبريرات مختلفة كالمالية والعنصرية والسياسية والتقليدية . وهذا ما يؤكد تمارض جمهوري باريس واوروبسي المستعمرة واختلاف وجهات نظرهما حول طبيعة التعليم المراد تقديمه للجزائريين . فالجمهوريون ارادوا تطبيق التعليم الفرنسي النظري على الجزائريين لتحقيق الادماج، في حين طالب الاوروبيون في المستعمرة بتطبيق التعليم التطبيقي ، الاولى والبسيط ، لتحقيق الانفصال عن الميتروبول .

A. O. M. (Archives d'outre - mer d'Ex-en- Provence) 225 (3) , Ecole Arabe - Française (1860 - 1876) . (٢١)

(٢٢) كان من انصار تعليم الجزائريين والاهتمام ، ويقال انه كان من المساهمين في فكرة الملكة العريضة التي جاء بها نابليون الثالث ، وكان مستشارا له في الشؤون «الاهلية» .

Bourgeois, H.Le., **Rapport d'ensemble sur l'état de l'instruction primaire en Algerie** , p. 77, Paris 1880 . (٢٣)

(٢٤) اميد تنظيمها في اواغزن Ouaghzen بين ١٨٩٧ و ١٩٢٨ ثم حولت الى بني يني Beni Yenni وهذه القبيلة التي استفادت اكثر من غيرها من المدارس التي اسستها الادارة الفرنسية .

Mesnard , op. cit. p. 360. (٢٥)

La construction du mythe kabyle, p. 81, Alger 1977. (٢٦)

ibid , P. 78 (٢٧)

Bourgeois, op. cit. p. 71 (٢٨)

(٢٩) استمرت ثلاث مدارس فقط في تقديم التعليم هي: مدرسة تاويريت ميمون ، مدرسة تيزي راشيد ومدرسة صهاريسج .

Mabrouki, R., op. cit. p. 78. (٣٠)

Colonna, F., **Les institnteurs algeriens 1883 - 1939**, p; 115, O.P.U., Alger , 1975. (٣١)

(٣٢) خير تعبير على هذه الفكرة ما قاله عباس فرحات من كتابه ليل الاستعمار. « فعندما يقول الجزائري

انه عربي يجيبه القضاة الفرنسيون لا انك فرنسي ، ولكن حين يطالب بحقوق المواطن الفرنسي يجيبه نفس القضاة لا انك عربي » . ص ١١ ، ترجمة وليم خوري ١٩٦٢ .

(٢٣) Desvages, H., L'enseignement des Musulmans en Algerie sous le rectorat Jeanmaire, in *Mouvement Sociale*, Janvier- Mars 1970, p.119.

وكان وزير التربية برتولو Berthelot ، بعد زيارة للجزائر في ١٨٨٧ ، قد اعلن امام مجلس الوزراء « بضرورة رفع عدد التلاميذ في مدارس منطقة القبائل ، لانها تمثل الوسائل الناجحة لدمج مستعمرتنا الافريقية الكبيرة في الوطن الام » . المرجع نفسه ص١٢٢ .

(٢٤) وهي الثورة التي قادها الباشاغا القراني ضد الاحتلال الفرنسي في منطقة القبائل . Colonna, op. cit. P. 108.

(٢٥) توجد صناعة الاسلحة وصياغة الذهب لدى قبيلة بني بنى في منطقة القبائل . والقبيلة من اغني مناطق منطقة القبائل اقتصاديا .

(٢٦) Babrouki, op. cit. p. 70.

(٢٧) ويرى احد دعاة الخاصة القبايلية انه لا يجب فهم القبائلي على ما هو عليه بقدر ما يكمن في كيفية استقلاله واستخدامه بالشكل الجيد ووفقا للظروف . لان استعماله يعني هدم المجتمع العربي وتفكيكه . المرجع نفسه . ص ٩٠ .

(٢٨) استغنت الحكومة الفرنسية عن القضاة الجزائريين وانزلتهم الى مراتب سفلى ، واغلقت المدارس القرآنية وفرضت التعليم الاجباري الفرنسي في منطقة القبائل .

(٢٩) Ageron, La France .., ibid, p; 348.

(٤٠) كانت قد هجرتها عندما تعرضت المنطقة بكاملها (منطقة القبائل) للقمع الفرنسي الذي وافق القضاء على ثورة ١٨٧١ .

(٤١) colonna, op. cit. p. 112.

(٤٢) استطاع صابانيه ان ينجح في منطقه ، بحيث ان ست(٦) مدارس استمرت في نشر رسالتها « الحضارية » مع ٦٠٠ تلميذ . واعتبر هو نفسه ان سنة ١٨٨٤ ، هي السنة التي يمكن ان يستولي فيها على منطقة القبائل بالتعليم الفرنسي .

* حصل الباحث على شهادة الماجستير في التاريخ برسالته « السياسة التعليمية الفرنسية في الجزائر ، ١٨٧١ - ١٩١٤ » باشراف الدكتور محمد خير فارس .